

الطباعة ودورها في النهضة الأوربية وفي اليقظة العربية

د . زوقان فرقوط

جامعة دمشق

يعرف (جان دلمو Jean Delumeau) النهضة بأنها « ارتقاء اوربا في ذلك العصر الذي تقدمت فيه حضارتها بصورة حاسمة ونهائية على الحضارات الاخرى (اونيفر سالس) . ولقد كانت وسائل النهضة التي اخذت تنتشر وتعم امم اوربا بداية التفاوت بين هذه الامم الاوربية وسائر امم العالم . ولا بد لنا لفهم تخلف العالم الثالث من العودة باصوله الى ذلك العصر ، العصر الذي فتحت فيه الاجتياحات البرتغالية والاسبانية الافاق امام اوربا للهيمنة على العالم ، وراحت خيرات الدنيا وكنوزها وذخائرها تندفق اليها .

ففي حين خرجت اوربا بوسائل النهضة (مخترعات ، ارتيادات جغرافية في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، نهب الشعوب ، تجديد اساليب العلوم والتعليم ، نشر التراث القومي والعالمي ...) من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، دخلت امم اخرى ، كالأمة العربية ، على الرغم من تقدمها الحضاري ، بل وتفوقها حينذاك ، الى ظلمات التأخر « العصور الوسطى » . وهكذا اختل التوازن . فالبعض يعتبر ان عدم قدرة العرب على تجاوز الظروف التي حالت دون تفاعلهم تفاعلا ايجابيا مباشرا مع عوامل النهضة يشكل بحد ذاته قصورا ذاتيا . ويرى اخرون للعرب مبرراتهم في ظروف الصراع المحتدم حينئذ بين العرب المسلمين واوربا ، وان ما يكشف عن القصور الذاتي او عدمه هو مدى استجابة العرب الان لتحديات العصر . ولا شك في ان اولى وسائل النهضة الاوربية الى التفوق كانت ، في ذلك الحين ، هي الطباعة الحديثة ، كوسيلة متقدمة لنشر التراث والفكر . هذه الوسيلة التي نستعرض ههنا جانباً من تطورها في الغرب وفي البلاد العربية .

قبل انتشار فن الطباعة في اوربا ، كانت الوسيلة الى المعرفة في العالم واحدة ، وان تفاوتت العناية والاهتمام بها من بلد الى آخر ، وتكاد تنحصر بالسماع والرواية

والاخبار المتناقلة والمخطوطات المتداولة .. لذلك كان النسخ والاستنساخ ، الى جانب الرحلات القليلة وتناقل التجار للاخبار والقصص والجواسيس والعيون .. وسيلة الحضارات في العالم للاتصال والتقدم .

الا ان هذه الوسيلة لم تعد تكفي اوربا القرن الخامس عشر ، حيث كانت الاقوام ، اثر عصر الامبراطوريات ، تتشكل في امم ودول آخذة في التمايز بعضها عن بعض ، وراحت لغاتها تنفصل عن اللاتينية وغيرها من اللغات القديمة ، وتكون ، من لهجاتها المحلية ، في لغات جديدة ، سرعان ما اتخذت طابعا قوميا اقليميا .. وقياسا على ذلك كانت المعرفة بالوسائل المألوفة تقتضي عملية مزدوجة : من جهة اتقان اللغات القديمة ، مصدر هذه المعرفة : اليونانية ، اللاتينية ، العبرية ، العربية ، الفارسية ، الهندية ، الصينية .. ومن جهة اخرى استيعاب اللهجة الجديدة او اللغة الناشئة ، الآخذة في التكون : الفرنسية ، الايطالية ، الالمانية ، الانجليزية .. الخ . واذا كان من السهل تعلم اللغة الناشئة واتقان الكتابة بها ، لارتباطها بالحياة اليومية ، وبالامور الدارجة ، وبالتالي القيام بعملية النسخ المطلوبة حينئذ لنقل المعرفة ونشر الراي ، فان تعلم اللغات القديمة كان متعذرا الا على القلة النابغة ، وهي بالقطع ممن لا يتوافر لها الوقت الكافي للقيام بعملية النسخ او الانقطاع لها .

ومن جانب اخر قد يكون الاهم ، والحافز الاقوى ، كان عهد الحروب الصليبية قد ولى وهو العهد الذي كان بالحرب والتجيش وضبط التعصب ... يحمي العقيدة من التفتت والانحلال ... وصار الاسلام ، تحت رايات العثمانيين ، بعد سقوط القسطنطينية وبيزنطة ، يدق ابواب اوربا بعنف ، وانطلق حداء النهضة والاستنهاض من امثال * ايراسم (Erasme) يجوبون اوربا ويقرعون اجراس الخطر .. للوقوف في وجه الاسلام . ومن هنا اشتداد الحاجة الى ترويج الفكر والتنوير والحماية ، وبالتالي الى (فن) الطباعة للايفاء بمتطلبات الصراع السياسي والمذهبي المحتدم في الداخل والخارج .



ولم تكن فكرة التدوين والطباعة ونشر الراي واذاعته ، بنت ساعتها او جاءت من الفراغ . فقد مرت ، عبر تاريخ البشرية ، بمحاولات عديدة ، نابغة من النزعة الخالدة للبقاء ، فالمصريون كتبوا على ورق البردي ونقشوا على الصخر ، والسومريون

(*) ايراسم Erasme هو ديديه ايراسم من رواد الحركة الانسانية في اوربا النهضة (١٤٦٩ - ١٥٣٦) يتمتع بفكر موسوعي. تناول المجتمع في عصره، وبخاصة الاجواء الدينية فيه ، بنقد عنيف ولكن بتعقل حذر . اهم اعماله « مديح الجنون » الذي طبع لأول مرة في بال (سويسرة) .

والاكاديميون توصلوا الى كتابة الاوامر والمعلومات على قوالب من الاجر تنقش قبل حرقها ، وشاعت هذه الطريقة عند الصينيين حوالي سنة ٦٠٠ م ، غير انهم اتخذوا الخشب بدلا من الاجر في البداية ، ثم الوزق (١) وذهب المستشرق (هامر بورجستال Hammer Purgstall) الى ان العرب أخذوا هذه الطريقة عن الصينيين على اثر فتح العرب لاجزاء من الهند واتصالهم بالصين ، ثم نقلوها معهم الى الاندلس . ويستدل على ذلك بنصوص من بعض الكتب الاندلسية ، منها ما ورد في كتاب الحلة السرية لابن الاثير من ان بلدا مولى الامير عبد الله كان يكتب السجلات في داره ثم يبعث بها فتطبع . ومنها ان تجار المرية بالاندلس كانوا يبصمون بضائعهم بخاتم محفور من الخشب يرجع تاريخه الى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٥٠ م) (٢) وذلك قبل محاولة غوتنبرغ بمائة عام* .

غير ان المقصود بفن الطباعة هنا ليس مجرد كتابة كلام على ورق او حفره على خشب او احداث صورة لشيء بمداد ... وانما المقصود بذلك فن الطباعة الذي توصل اليه غوتنبرغ لأول مرة عام ١٤٤٠ م ، والذي احدث انقلابا في فكر الانسان وحياته ، ونقل اوربا عشرات السنين الى الامام ، وهو نقش الحروف المفردة على المعادن بشكل يجعلها تجمع فتصبح كلاما يطبع على الورق ، ثم تحل ويعاد جمعها بصيغة اخرى فتطبع كلاما اخر وهكذا ... ثم وضع هذه الحروف المجموعة في آلات تطبع منها نسخا كثيرة في وقت قصير . فاذا به وسيلة لنشر العلوم والمعارف وترقية الافكار وبالتالي نشر الراي والاطلاع على مجريات الامور .

وما كاد فن الطباعة ، على هذا النحو ، يظهر حتى اتجه به الاوربيون وجهة دينية متلازمة مع الروح التي كانت حينئذ تصبغ كل شيء بصفتها ، غرضها طبع الانجيل بلغته الاصلية من جهة ، ثم نشر ارائهم الدينية بين غيرهم من اصحاب اللغات الشرقية من جهة اخرى . ولذا لم يمض على اختراع الطباعة بالحروف المفردة قليل وقت حتى كان ابطال تلك الصناعة قد اتجهوا الى عمل حروف لطبع اللغات الشرقية . فكانت العبرية اول لغة شرقية اجتذبت عناية المهتمين بالطباعة ، باعتبارها لغة الانجيل والتوراة ، وكانت العربية ثانيتهما (٣) .

(*) ج . غوتنبرغ J. Gutenberg . مخترع الطباعة بالحروف المتحركة (١٤٤٠ م) . عمل في (ماينس) منذ ١٤٤٨ م بالاشتراك مع (ج. فوست J. Fust) وطبع الطبعة الشهيرة من الكتاب المقدس المسماة بطبعة « الاثنين واربعين سطرا » .

قامت اول مطبعة عربية في (فانو Fano) بايطاليا ، امر بانشائها البابا يوليوس الثاني في اوائل القرن السادس عشر ، وعهد بها الى الطباع جريجوري جرجس البندقي . وقد اصدرت هذه المطبعة في سنة ١٥١٤ اول كتاب طبع باللغة العربية وهو كتاب « صلاة السواعي » حسب طقوس كنيسة الاسكندرية ، ويقع في ٢١١ صفحة . ثم انتقلت الطباعة العربية الى جنوه ، فطبع بها في سنة ١٥١٦ م سفر الزبور بأربع لغات ، هي العبرية واليونانية والعربية والكلدانية ، ومع كل منها ترجمة لاتينية مطابقة لها . ثم انتقلت الطباعة العربية بعد ذلك الى البندقية ، وطبع بها القرآن باللغة العربية في سنة ١٥٣٠ م ، لكن النسخ اعدت خوفا من تأثيره في عقائد المسيحيين .

وما لبثت الطباعة باللغة العربية ان نالت النصيب الاوفر من عناية المطابع ، فكثر مطبوعاتها العربية ، وعلى الاخص مطابع روما . ففي سنة ١٥٦٦ اصدرت مطبعة مدرسة الباء اليسوعيين بروما كتاب « اعتقاد الامة الارثوذكسية في كنيسة رومية » لآحد آباء اليسوعيين . وتلاه كتاب جدل في صحة الدين المسيحي لنفس الاب سماه « مصاحبة روحانية بين عالين » ومن المطابع العربية التي اشتهرت في روما مطبعة آل مديتشي ، التي اصدرت كتبا عربية عديدة كان اولها كتاب الاناجيل المقدسة في عام ١٥٩١ م . وقد قيل انه جميل الطبع متقن الصور اذ قام بنقشها على الخشب (تمبيستا Tempesta) (امهر حفاري ذلك العصر) . ومنها أيضا مطبعة جمعية انتشار الايمان ، وقد طبعت كثيرا من الكتب الدينية . وبانتشار الطباعة في سائر بلدان اوربا اصدرت مطبعة ليدن بهولندا ، التي انشاها (اربينيوس Erpenius) سنة ١٥٩٥ « امثال لقمان » سنة ١٦١٥ ، و « العهد الجديد » سنة ١٦١٦ ، و « قصة يوسف » من القرآن ، وكان اول كتاب يطبع مضبوطا بالشكل الكامل . وخطا (سافري دي بريف Savary de Brèves) ، الذي كان قنصلا لدى الباب العالي ومال به شغفه بالعلوم الشرقية الى الانصراف للطباعة ، خطوة في اتقان الطباعة باللغة العربية ، فحفر في باريس (أمهات) للحروف العربية أجمل من حروف مطبعة آل مديتشي ثم نقلها الى روما وكان اول كتاب طبعه بها هو « التعليم المسيحي » سنة ١٦١٣ و « الزامير » ١٦١٤ (٥) .

الا ان الطباعة ما لبثت ان تحولت تدريجيا من الاغراض الدينية الصرفة الى النواحي العلمية . وواضح ان المخاوف التي انبعثت في ارجاء اوربا اخذت تتبدد ، وبدأت آفاق التفوق تلوح امامها بعد الاجتياحات التي قامت بها في اسيا وامريكا اللاتينية ، وتدفق الثروات اليها . لذلك صار الاهم لديها نبش ذخائر الشرق وكنوزه

الفكرية والعلمية ... ففي عام ١٥٨٤ م تم طبع اول كتاب علمي في مطبعة مدرسة الاباء اليسوعيين بروما باللغة العربية وهو « البستان في عجائب الارض والبلدان » . واصدرت مطبعة آل ميديتشي بروما عام ١٥٩٢ م كتاب « مبادئ اللغة العربية » ليوحنا ريموندي ، ثم كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق » لابي عبد الله محمد المعروف بالشريف الادريسي . وفي عام ١٥٩٣ م نشرت هذه المطبعة ايضا « قانون ابن سينا في الطب » وبآخره كتاب « النجاة » ثم الحقته بكتاب « تحرير اصول اقليدس » لنصر الدين الطوسي عام ١٥٩٥ م . واخرجت مطبعة سافري دي بريف « مبادئ اللغة العربية » سنة ١٦٢٢ م لمنصور شلق ، و « نحو اللغة العربية » بعد عامين لبطرس المعوشي الماروني ، وكتاب « ايساغوجي » في المنطق بعد عام ... ومن اهم منشورات مطبعة لندن ، في بداية انشائها « تاريخ الدولة الخوارزمية » لابني الفداء سنة ١٦٥٠ م ، كما كان كتاب عبد اللطيف البغدادي في الامور المشاهدة بمصر سنة ١٨٠٠ م من اهم ما اصدرته مطبعة اكسفورد ... وهكذا راحت تتابع الكتب العربية المنشورة ، وبتسارع ، من المطابع المنتشرة في عواصم اوربا : من غوتنجن وفيينا وبرلين وباريس وغيرها بما لا يقع تحت الحصر .

وفضلا عن المخطوطات التي تجمعت لدى افواج الصليبيين فنقلوها معهم وكانوا يتفخرون باقتنائها ، كان من مهام قناصل الغرب الاولى اينما كانوا ان يعملوا ما في وسعهم لنقل تراث الحضارات في العالم القديم ، وبخاصة التراث العربي . ففي القسم العربي بمكتبة باريس الوطنية مثلا ، مما حالفني الحظ بالاطلاع عليه ، وآمل ان يوفقني الى نشره قريبا ، رسائل عديدة مازالت محفوظة بخط اليد ، متبادلة بين القناصل في لبنان وسورية ، او موجهة الى من يتصلون معهم من غير رجال الدين ، من مسيحيين ومسلمين وغيرهم . وهي تشير الى مدى ذلك الاهتمام ونوعيته (٦) ، حتى ليتمكن القول انه لم يهل القرن التاسع عشر ، قرن الاهتمام المركز بالمنسالة الشرقية والانصراف الى التمهيد لاستعمار البلاد العربية ، حتى اتضحت للغرب تيارات الحضارة العربية الاسلامية ومنافذ السيطرة عليها .



كانت الحضارة العربية الاسلامية قد تجاوزت ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، منذ زمن طويل ، المرحلة التي اخذت تمر بها امم اوربا في مطلع النهضة ، بما تم للعرب ، من قبل ، من نقل عن اليونان والحضارة الهيللنستية ، والفرس والهند وبيزنطة ، مما يلائم اتجاهاتهم ، الى الانتاج في مختلف مجالات الفكر . واشتدت حاجة الناس الى الاطلاع والمعرفة والبحث . وتلبية لهذه الحاجة كثر الوراقون وانتشرت المكتبات

في جنبات الوطن العربي وتزايد عدد النساخ . وكثر الطلب على المؤلفات والمؤلفين . فكثيرا ما كان بعضهم ينتقل من أقصى الغرب الى المشرق سعيا وراء مخطوط سمع بذكره ، او للتلمذ على عالم طارت شهرته ، او بالعكس . وكان يعتبر عملا مقدسا وجليلا ان يبني الانسان مكتبة عامة او مكانا يجمع فيه الكتب لنشر المعرفة بين الناس الى جانب نسخ الكتب وكتابتها (٧) . فقد روى الدكتور احمد جاب الله شلبي بما يدعو الى الدهشة والاعجاب عن النساخ في عصور الاسلام المزهرة انه كان ، مثلا ، « . . بمكتبة بني عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخا ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلا ونهارا ، بحيث لا ينقطع النسخ . ولم يقل عدد الذين يؤدون عملهم فعلا عن ثلاثين ناسخا في اية ساعة من ساعات النهار والليل » (٨) .

ولم يلبث الحال بفئة النساخ حتى باتوا يشكلون « طائفة » حرفية ذات أهمية وفعالية في المجتمع . تكتسب أهميتها ، الى جانب ترابطها وتماسكها للدفاع عن مصالحها ، من امور عديدة : من عناية كل فرد بقدسية اللغة العربية وحرصه على الا تقع ورقة فيها كتابة عربية ، على الارض فيطأها أحد يقدمه ، ومن بلوغ التعصب والحماس لفكرة النسخ واتقان الحروف المكتوبة بالخط اليدوي والتفنن بها ، حدا عظيما ، ومن ارتباط هذا الفن بالدين واعتباره تعبيرا عن العاطفة الدينية .

لذلك لا غرابة اذا ما اعتبرت الطباعة ، عند انتشارها ، رجسا من اعمال الشيطان ، من ناحية لان جلد الطباعة يصنع من الحيوانات النجسة فلا يجوز أن تطبع به اللغة العربية المقدسة ، بله الكتب الدينية وخصوصا القرآن الكريم . ومن ناحية ثانية لان الالاف من الناسخين الذين كانوا يكسبون قوتهم عن طريق نسخ الكتب ، رأوا ان مهنتهم اصبحت في خطر وهكذا تضافرت متطلبات العقلية الدينية السائدة حينئذ ودواعي المصلحة ، للحيولة دون ادخال الطباعة الى البلاد الاسلامية ، وبالتالي الى بلاد العرب . فعندما سمع المسلمون ، في البلاد العربية خاصة ، والبلاد العثمانية عامة ، اول اشاعة عن التجديد المقترح بادخال فن الطباعة ، تولاهم الفرع ، فرأى علماء الدين في ذلك انتهاكا للشريعة ، مدعين ان ثمرة التفكير البشري التي طالما توارثتها الاجيال عن طريق النسخ لا ينبغي لها ان تخضع لوسيلة اقل دقة في النقل واقل رقابة عليها . وظهر الذين تعشقوا الادب لذاته ، مخاوفهم من ضياع فن النسخ الذي طالما أضفى العظمة والجمال على انبل الافكار بنسخها بالمخطوط الجميلة وبالتشابك الرمزي البديع للحروف وعلامات التشكيل (٩) . . الخ . ومن الواضح ان العامل الاقتصادي لم يدخل في حسابهم ، على الرغم من ان قيمة نسخ

القرآن الكريم بريشة حافظ عثمان ، أو أي ناسخ مشهور آخر مساو له ، بحروف نسخية ، كانت تتراوح بين مائة ومائتين وخمسين جنيها ذهبيا (١٠) بل لعل هذا نفسه كان مدعاة للتمسك بفن النسخ ، كذلك لم تدخل في الحسبان ديموقراطية الثقافة وشعبية الفكر .

كان الوازع الديني هو المؤشر الأكبر وهو الموجه الفعال في دار الاسلام وفي بلاد المسيحية، ولكن شتان بين توجهه هنا، وتوجهه هناك ، كان اثره هنا جامدا . . وكان اثره هناك دافعا الى الامام . ولم يكن ذلك من جوهر الدين في شيء . ففي اوروبا كان النزاع الطائفي والاقليمي ، كما كان صراعها السياسي وعلى رأسها البابوية ضد الدولة العثمانية الفتية ، التي تمكنت من السيطرة على عاصمة المسيحية الثانية المتقدمة ، هو الموجه الاساسي . . وعلى الرغم من ان طبيعة الحكم لم تكن ، حينذاك ، تختلف هنا كثيرا عنها هناك ، وكذلك عقلية رجال الدين ، الا ان ظروف اوروبا الداخلية والخارجية كانت تعمل على توحيد اكثر المواقف بين رجال الدين والحكم . وعلى العكس من ذلك اكان العامل الديني في بلاد المسلمين من جهة ، ومصلحة الاعداد الهائلة من الناسخين من جهة اخرى ، العاملين الاساسيين للذين اخرا الاخذ بفن الطباعة، وكانا سببا في كبح ارادة الدولة . ذلك ان ارتباط طائفة الناسخين برجال الدين بات يشكل عقبة في وجه أي تصرف يضير مصالحهم مالم يضمن موافقتهم . وطيلة قرنين من الزمان باءت بالفشل جميع المحاولات لادخال فن الطباعة العربية الى البلاد العثمانية . حتى تمكن اخيرا الصدر الاعظم ابراهيم باشا ، المثقف المتنور ، بنفوذه ، من استمالة السلطات الدينية ، التي انتقلت اليها السيادة وحالت دون استقدام أي اختراع اوروبي ، لتوافق على إيجاد مؤسسة للطباعة في الامبراطورية العثمانية ، بعد ان قدمت للسلطان تقارير الموفدين الى اوروبا التي تعتبر الطباعة اساسا لكل تقدم (١١) . ومع ذلك نفذ اضطرت الحكومة الى ان تقطع عهدا على نفسها يرضي الطرفين : اذ وعدت بانها لن تسمح بطبع الكتب الدينية ، وانها سوف تتكفل باعالة الناسخين . ولقطع الطريق على الاعتراضات وتسكيننا للتعصب لجأ السلطان الى اخذ فتوى من شيخ الاسلام عبد الله افندي* ، تجيز طبع الكتب غير الدينية ، هذه صيغتها :

★ تذكر بان السلاطين الثلاثة عبد العزيز ومراد الخامس وعبد الحميد الثاني قد سقطوا نتيجة فتوى من شيخ الاسلام ، وان السلطان محمود الثاني لم يكن ليقوى على حل الفرق الانكشارية لولا الفتوى التي دعمته .

سؤال :

« اذا كان زيد الذي يدعي انه ذو قدرة في فن الطباعة ، وانه يستطيع أن ينقش على القوالب اشكالا للحروف والكلمات من كتب في اللغة والمنطق والفلسفة وعلم الفلك وعلوم دنيوية مماثلة ويأتي لنا بنسخ لتلك الكتب عن طريق ضغط الورق على القوالب فهل يسمح القانون الوضعي لزيد بممارسة مثل حرفة الطباعة ؟ ... »

انما نطلب فتوى في شأن زيد هذا وفي شأن الطباعة »

الجواب : « والله أعلم »

« اذا قام شخص ذو قدرة على الطباعة بنقش الحروف والكلمات لكتاب مصحح على قالب بصورة صحيحة واتى لنا بنسخ كثيرة في مدة وجيزة بدون عناء عن طريق ضغط الورق على ذلك القالب فان كثرة الكتب قد تقلل من ثمنها ويترتب على ذلك زيادة اقتنائها وبما ان في ذلك فائدة هائلة فان هذا الموضوع جدير بالثناء العميم . وينبغي ان يعطى الاذن لذلك الشخص ، ولكن يجب ان يعين علماء لتصحيح الكتاب الذي سوف تنقش حروفه » (١٢) .

وعلى اثر هذه الفتوى صدر قرار سلطاني في ٥ تموز (يوليو) ١٧٢٧ باعتماد طبع الكتب وبالتصديق على تعيين اربعة من المراقبين للاشراف على اعمال مكتب الطباعة . وكان اول كتاب ظهر في عاصمة « الخلافة » الاسلامية العثمانية ، قاموسا تركيا - عربيا احتوى على نفس الفتوى وعلى موضوعات عن فوائد الطباعة كتبها عدد من رجال العلم ذوي مكانة عالية في السلطة الدينية (١٣) .

وفي رأي الاستاذ ساطع الحصري ان اول كتاب طبعته « دار الطباعة » المؤسسة في « البلدة الطبية قسطنطينية صانها الله من الافات والبلية » هو المعجم المعروف « صحاح الجوهري » مع ترجمته التركية في سنة ١١٤١ هـ / (١٧٢٩ م) (١٤) .



والحقيقة ان فن الطباعة قد انتقل من اوربا الى الشرق قبل هذا التاريخ بكثير . وكان ذلك لاغراض دينية ، كما كان انتشار الطباعة باللغات الشرقية في اوربا لاغراض دينية بادىء الامر . وكما كانت اللغة العبرية هي اولى اللغات الشرقية التي نالت

عناية المشتغلين بالطباعة ، ثم تلتها اللغة العربية ، كذلك كان دخول الطباعة الى بلدان الشرق على هذا الترتيب ايضا : اللغة العبرية ثم اللغة العربية . فقد انشأ اليهودي ربي اسحق جرسون اول مطبعة عبرية في الاستانة : جاء الى الشرق خصيصا لينشر بين اليهود كتبهم الدينية . فاحاطها اليهود بنفوذهم لضمان اطراد نجاحها وكان الاطباء منهم وكبار التجار على اتصال وثيق بأولي الامر في « دار الاسلام » (١٥) وقد ظلت هذه المطبعة تخدم الاداب العبرية زهاء ثلاثمئة سنة طبعت فيها ما يزيد على مائة كتاب في جميع العلوم والفنون ، الا ان اغلب ما طبع فيها كان كتباً دينية . وأول كتاب طبع بها هو ملخص تاريخ اليهود ليوسيفوس بن كربون ، وكان طبعه في سنة ١٤٩٠ م . كما قامت بطبع بعض الكتب العربية بالحروف العبرية لا بالحروف العربية ، ومنها بعض رسائل بن ميمون في الدين اليهودي ، وترجمة التوراة الى العربية لسعيد الفيومي عام ١٥٥١ م (١٦) .

وقد انشأ اليهود بعد مطبعة الاستانة مطابع عديدة ، كان اهمها مطبعة سالونيك في اوائل القرن السادس عشر ، وطبعت كتباً دينية وعلمية كثيرة ، منها خطب مدينا بن صموئيل سنة ١٥٢٠ م ، ومجموعة في الطب سنة ١٧٩٦ م . وتأتي اهمية هذه المطبعة من أن الحركة اليهودية العالمية كانت تعمل على تركيز جهودها في سالونيك للتسرب منها الى الخلافة العثمانية ، وبالتالي لاحداث الانقلابات فيها ولا شك في قيامها بالدور المطلوب في كل ذلك .

وكانت مطبعة حلب أول المطابع العربية التي انشئت في الشرق وقد اختلف في امرها كثيراً ، وبخاصة حول حروفها . الا ان المسام به ان الذي أنشأها هو اثناسيوس الرابع البطريك الانطاكي ، الذي رحل في سنة ١٦٩٨ الى بخارست وطبع هناك بعض الكتب الدينية باليونانية والعربية ، ولما عاد الى حلب انشأ فيها هذه المطبعة (١٧) ، وكان أول مطبوعاتها كتاب طقوس كنسية سنة ١٧٠٢ م ، ثم الانجيل في سنة ١٧٠٦ . وعلى كل حال فالهم في الامر هو انتشار فن الطباعة بصورة رسمية لما له من علاقة وثيقة في النهضة الفكرية وبعث التراث وحياء التاريخ ... الخ .

وأيا ما كان الامر فان الطباعة قد بدأت رسمياً في الدولة العثمانية بالقرار السلطاني (٥ تموز ١٧٢٧) ، وبفتوى شيخ الاسلام ، واخذت تنتشر في أرجاء الوطن العربي بعد ظهورها في الغرب باكثر من مئتين وسبعين عاماً . ومع ذلك فانها في مدة قرن ونيف من الزمان اي من عام نشوئها رسمياً الى عام ١٨٣٠ (باستثناء ما اخرجته مطابع الحملة الفرنسية ومطبعة بولاق) - لم يزد عدد مطبوعاتها على اربعة وتسعين

كتابا ، منها تقاويم اولى بها ان لا تحسب ، ناهيك عن رداءة طبعها لتآكل الحروف وعدم تغييرها ، وما كان يصيبها من تعطيل وصدا أو عدم وجود من يديرها (١٨). الخ فضلا عن ان عدد النسخ من اي كتاب طبع بها لم يزد على خمسمائة نسخة اذا استثنينا « لغاتي ومنقولي » و « تحفة الكبار في اسفار البحار » اللذين طبع من كل منهما ألفا نسخة . ومع ذلك فحتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر لا نجد كتابا واحدا بين ما اصدرته مطبعة الاستانة والمطابع الاخرى في حلب والشويعر وبغداد والقدس وبغداد والقاهرة ، يعطي فكرة عما يجري في بلاد الغرب وعن التطور الذي حدث هناك وعن التغيير الذي ألم بدوله ، منذ منتصف القرن الخامس عشر . في حين نرى العكس في بلدان اوربا : فانها كانت قد اصبحت على علم بكل مجريات الامور في بلادنا .. وقبل انشاء المدارس التبشيرية في لبنان وارساء اساس الجامعة الامريكية ، وقيام المدارس في عهد محمد علي باشا في مصر وابنه ابراهيم في سورية ، كانت البلاد ماتزال تسير في التعليم وتربية النشء على نمط الكتاتيب والتكايا والجوامع ، ولا تعرف شيئا منظما عن الطرق الحديثة في التعليم ...



- ١ - الدكتور أبو الفتوح رضوان : مطبعة بولاق ، المطبعة الاميرية بالقاهرة عام ١٩٥٣ ص١ من المدخل .
كذلك الاب لويس شيخو «أصول فن الطباعة» ، مجلة المشرق عدد ثاني عام ١٩٠٠ حيث يروى أنه
شاهد نماذج من الورق الصيني مكتوبة بهذه الطريقة في المتحف البريطاني .
- Hammer Purgstall: «Sur l'Art d'imprimer Chez les
Arabes en Espagne » J. AS. 4^{em} Serie, T.XX P254
- ٣ - الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٦-٧
- ٤ - جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩١١ - ١٩١٤ ص٤
- ٥ - جورجى زيدان : المصدر السابق
- ٧ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ، ١٧ ص ١٧ دار المعارف بمصر .
- ٨ - الدكتور أحمد جاب الله شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ١٥٠
- ٩ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ١٩
- ١٠ - الدكتور شمس الدين الرفاعي نفس المصدر السابق ص ٢١
- ١١ - سامي الكيالي : الحركة الادبية في حلب ص ٢٠٥
- ١٢ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١
- ١٣ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق .
- ١٤ - ساطع الحمصي : آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ، دار العلم للملايين : مقالة تاريخ
انتشار الطباعة في الدولة العثمانية .
- ١٥ - الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٩
- ١٦ - مجلة المشرق ، السنة الثالثة عدد ٤ ص ١٧٥ حيث يجد المستزيد بيانا بكثير هذه المطبوعات .
- ١٧ - يقول Schnurrer أن حروفها هي نفس حروف بخارست . ويخطئ دى ساسى
De Sacy رايه ويقول أنه وجد خلافا كبيرا بين حروف حلب وحروف بخارست . في حين يرى
الاب لويس شيخو ان انثيموس الكاهن الذي قام بطبع الكتب للبطريرك في بخارست صحبه
الى حلب حيث قام بصب الحروف على غرار حروف بخارست وعلم هذا الفن لاناس من حلب .
ويروي جورجى زيدان عن جورج خياط أحد محامي حلب أن الذي حفر الاحرف وصبها هو الصائغ
الماهر عبد الله زاخر الحلبي .
- ١٨ - تاريخ جودت: ترجمة عبد القادر افندي الدنا، بيروت ١٣٠٨ هـ ص ص ٨١ - ٨٤ حيث توجد
قائمة مفصلة بالمطبوعات : الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ١٢، ١٣، ١٤ .